دانشگاه پیام نور

تاریخ الأدب العربی
فی العصرین المملوکی و العثمانی

(رشتهٔ زبان و ادبیات عرب)

دکتر سیدمهدی مسبوق دکتر مصطفی جوانرودی

بسم الله الرحمن الرحیم

پیشگفتار ناشر

کتاب‌های دانشگاه پیام نور حسب مورد و با توجه به شرایط مختلف یک درس در یک یا چند رشتهٔ دانشگاهی، به‌صورت کتاب درسی، متن آزمایشگاهی، فرادرسی، و کمک‌درسی چاپ می‌شوند.

کتاب درسی ثمرهٔ کوشش‌های علمی صاحب اثر است که براساس نیازهای درسی دانشجویان و سرفصل‌های مصوب تهیه و پس از داوری علمی، طراحی آموزشی، و ویرایش علمی در گروه‌های علمی و آموزشی، به چاپ می‌رسد. پس از چاپ ویرایش اول اثر، با نظرخواهی‌ها و داوری علمی مجدد و با دریافت نظرهای اصلاحی و متناسب با پیشرفت علوم و فناوری، صاحب اثر در کتاب تجدیدنظر می‌کند و ویرایش جدید کتاب با اعمال ویرایش زبانی و صوری جدید چاپ می‌شود.

متن آزمایشگاهی (م) راهنمایی است که دانشجویان با استفاده از آن و کمک استاد، کارهای عملی و آزمایشگاهی را انجام می‌دهند.

کتاب‌های فرادرسی (ف) و **کمک‌درسی** (ک) به منظور غنی‌تر کردن منابع درسی دانشگاهی تهیه و بر روی لوح فشرده تکثیر می‌شوند و یا در وبگاه دانشگاه قرارمی‌گیرند.

مدیریت تولید محتوا و تجهیزات آموزشی

الفهرست

المقدمة	السابع
التمهيد: نظرة على أطوار الأدب العربى عبر التاريخ	التاسع
الدرس الأول: التعريف بالعصر المملوكي	١
البيئة السياسية	١
البيئة الثقافية	٣
البيئة الأدبية	٥
أهم المؤلفات فى العصر المملوكي	١١
تمارين الدرس	١٧
الدرس الثانى: التعريف بالعصر العثماني	٢١
البيئة السياسية	٢١
البيئة الثقافية	٢٣
البيئة الأدبية	٢٤
أهم المؤلفات فى العصر العثماني	٢٦
تمارين الدرس	٢٨
الدرس الثالث: الفنون الشعرية التقليدية	٣١
الغزل	٣٤
المديح	٣٤
الرثاء	٣٨
الهجاء	٤٠
الفخر و الحماسة	٤٣
الوصف	٤٧
تمارين الدرس	٥٠
الدرس الرابع: الأساليب و المذاهب الفنية	٥٣
الف) الفنون البديعية	٥٤
أشهر الفنون البديعية فى هذا العصر	٥٥
ب) البديعيات أو المدائح النبوية	٦١

تمارين الدرس ٦٦
الدرس الخامس: الفنون النثرية ٦٩
الرسائل و أنواعها ٧٠
الف) الرسائل الديوانية ٧١
ب) الرسائل الإخوانية ٧٢
المقامات ٧٣
علم التاريخ ٧٥
علم اللغة ٧٦
تمارين الدرس ٧٦
الدرس السادس: من أعلام الشعر ٧٩
شرف‌الدين الأنصاري ٧٩
شهاب‌الدين التلعفري ٨٢
شرف‌الدين البوصيري ٨٤
الشاب الظريف ٨٩
صفي‌الدين الحلي ٩٢
إبن نُباتة المصري ٩٣
إبن الوردي ٩٥
إبن المعتوق الموسوي ٩٦
إبن النقيب الحسيني ٩٧
تمارين الدرس ٩٩
الدرس السابع: من أعلام النثر ١٠١
جلال‌الدين القزويني ١٠١
إبن خلكان ١٠٢
أبو الفداء ١٠٣
شهاب‌الدين النُويري ١٠٥
صلاح‌الدين الصفدي ١٠٦
إبن هشام الأنصاري ١٠٧
إبن خلدون ١٠٨
شهاب‌الدين القلقشندي ١١٠
المَقريزي ١١٣
إبن حِجَّة الحَمَوي ١١٤
الأبشيهي ١١٦
جلال‌الدين السيوطي ١١٨
أجوبة تمارين الدروس ١٢١
المصادر و المراجع ١٢٣
معجم المفردات ١٢٥

المقدمة

الحمدلله رب العالمين و الصلاة و السلام على من كان خُلقه القرآن و جرى على لسانه جوامع الحكم و روائع الكلام و على آله و صحبه و من تبعهم بإحسان، و بعدُ.

قد درج كثير من الباحثين و مؤرخي الأدب على تسمية العصرين المملوكى و العثمانى تسميات مختلفة، منها عصر «الإنحدار» أو عصر «الإنحطاط» أو عصر «الأعاجم» أو عصر «المغول و التتار» أو عصر «الأتراک» أو عصر «الدول المتتابعة». و منهم من آثر أن ينسبه إلى هوية الذين حكموا هذه البلاد فسماه «العصر المملوكى و العصر العثمانى» و قد فضلنا التسمية الأخيرة إحتذاء لتسمية العصر الأموى و العباسى و تجنبا من إطلاق الحكم العام على أدب هذه الحقبة الزمنية، إذ إن هذه التسميات تحمل إشارة صريحة إلى الإنتقاص من مقومات الفكر العربى الإسلامى و تراثه الأدبى و ترميه بالتدهور و التردى قبل البحث الوافى، فرأينا أن هذه التسمية ظالمة و إن هذه الحقبة إن توصف بالتخلف و التدهور سياسيا و إجتماعيا ـ كما يرى بعض المؤرخين و الدارسين ـ فهى فى مجال الإنتاج الفكري و الثقافي و الأدبي مرحلة خصبة.

هذا و إن هذه المادة تهدف إلى تعريف الطالب بأدب الدولتين المملوكية و العثمانية و رصد المتغيرات الكبرى التى أظهرتهما و أثرت فى حركة الشعر و النثر قوة و ضعفا، تجديدا و تقليدا، و ترمى إلى تعريفه بالفنون الشعرية و النثرية و الظواهر الفنية لشعر هذه الحقبة، فبنينا الدراسة على تمهيد و سبعة دروس، و قد ألقينا فى التمهيد نظرة عابرة على أطوار الأدب العربي منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا.

قد استعرضنا فی الدرس الأول و الثاني البيئة العامة لهذين العصرين من مختلف جوانبها، السياسية، الثقافية و الأدبية و درسنا أهم المؤلفات التی خلفها أدباء هذين العصرين فی شتی المجالات الأدبية و البلاغية و التاريخية و اللغوية.

و أفردنا الدرس الثالث لدراسة الفنون الشعرية التقليدية من الغزل و المديح و الرثاء و الهجاء و الفخر و الحماسة و الوصف، و تناولنا فی الدرس الرابع الأساليب و المذاهب الفنية التی شاعت عند شعراء هذا العصر و وقفنا عند الفنون البديعية التی أكثر الشعراء من إستخدامها و طُبع شعرهم بطابعها ثم درسنا قصائد مدح الرسول (ص) أو ما سمي بـ«البديعيات».

أما الدرس الخامس فقد خصصناه لدراسة فنون هذه الحقبة النثرية من الرسائل الديوانية و الرسائل الإخوانية و المقامات و علوم اللغة و علم التاريخ.

اما فی الدرسين السادس و السابع فقد تناولنا حياة أعلام شعراء العصر و كتّابه مع التعريف بآثارهم و ذكر شذرات من شعرهم و نثرهم.

و أتبعنا كل هذه الدروس بالأسئلة التحريرية و المؤتمتة ليتمرن عليها الطالب، و أما الأسئلة المؤتمتة فأجبنا عليها فی خاتمة الكتاب و أما الأسئلة التحريرية فوكلنا إلی الطالب ليجيب عليها بعد إنتهائه من قراءة الدروس.

و لما كان هذا الكتاب جهدا متواضعا يظهر إلی الوجود لأول مرة فنقر بكثرة الهفوات و قلة البضاعة آملين ألا يحرمنا الأساتذة الأفاضل و القراء الكرام من إرشاداتهم المجدية و آرائهم القيمة لتصحيحها و تصويبها.

و فی الختام لا يسعنا إلا أن نتوجه بجزيل الشكر لقسم اللغة العربية و آدابها بجامعة بيام نور.

الدكتور سيد مهدی مسبوق
عضو الهيأة العلمية بجامعة بوعلی سينا همذان

الدكتور مصطفی جوانرودي
عضو الهيأة العلمية بجامعة «پيام نور»

التمهيد

نظرة على أطوار الأدب العربي عبر التاريخ

قد درج الباحثون على تقسيم أطوار الأدب العربى حسب العصور السياسة و ما يطرأ عليها من الأحداث و الوقائع. و هذا التقسيم قد أصبح معيارا يعتمد عليه فى دراسة تاريخ الأدب العربى، فللتعرف على هذه العصور نذكرها فيما يلى:

١. **العصر الجاهلي:** يبدأ من ١٥٠ سنة قبل الإسلام و يمتد حتى بزوغ شمس الإسلام.

٢. **العصر الإسلامي:** يبدأ من ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية و ينتهى إلى إستشهاد الإمام على (ع) سنة ٤٠هـ.

٣. **العصر الأموي:** يمتد من سنة ٤٠ هـ حتى إنهيار عرش الأمويين سنة ١٣٢هـ.

٤. **العصر العباسي:** يعرف بالعصر الذهبي فى الأدب العربي إذ إنه أكثر العصور ثراء و تنوعا و هذا الأمر قد دعا الدارسين إلى تقسيمه إلى أطوار و إن اختلفوا فى هذا التقسيم[١]، فمنهم من قسمه قسمين:

أ) العصر العباسي الأول: يمتد مئة عام من ١٣٢هـ/ ٧٥٠م إلى ٢٣٢هـ/ ٨٤٦ هـ.

ب) العصر العباسى الثاني: يستقل ببقية العصر أي من ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م إلى ٦٥٦هـ/ ١٢٨٥م. و منهم من قسمه ثلاثة أعصر و يبقى فيها على العصر الأول، ثم يمتد بالعصر الثاني إلى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م و هي السنة التي استولى فيها بنو بوية على بغداد و التى

١. راجع: تاريخ الأدب العربي فى العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ص ١٤، ١٥.

أصبحت الخلافة منذ هذا التاريخ اسمية ثم يمتد بالعصر الثالث إلى سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م و هو تاريخ استيلاء التتار على بغداد.

و منهم من قسم العصر الثالث (من ٣٣٤هـ. إلى ٦٥٦هـ) عصرين، الأول يسميه العصر العباسي الثالث من ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م إلى ٤٤٧هـ/١٠٥٥م و الآخر يسميه العصر العباسي الرابع و يستقل ببقية العصر أي من ٤٤٧هـ حتى ٦٥٦هـ، السنة التى استولى فيها التتار على بغداد.

٥. **عصر الإنحطاط:** و الذى نحن فى صدد دراسته ـ يبدأ من سنة ٦٥٦هـ التي قد سقطت فيها بغداد فى يد هولاكو و ينتهى مع حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٢١٣هـ و هذا العصر قد سمى أيضاً بالعصر الوسيط و الفترة المظلمة و العصر التركي و يشمل عهدي المماليک و العثمانيين و نتحدث عن كل منهما على حدة لِما بينهما من فوارق فى الحياة العامة التي لها أثرها فى اللغة و الأدب.

٦. **عصر النهضة:** يبدأ من حملة نابليون إلى مصر سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م و يمتد إلى يومنا هذا.

الدرس الأول

التعريف بالعصر المملوكي

الأهداف المعرفية

يُتوقع من الطالب بعد إنتهائه من قراءة الدرس أن:

١. يتحدث عن أبرز ملامح البيئة السياسية و الثقافية و الأدبية فى الدولة المملوكية.

٢. يتعرف على العوامل التى ساعدت على النشاط العلمي فى العصر المملوكي.

٣. يتعرف على ميزات الشعر و النثر فى ظل المماليک.

٤. يشير إلى الأسباب التى دعت إلى نشاط المؤلفين و كثرة المؤلفات الجامعة فى هذه الحقبة.

٥. يقدّم تعريفا موجزا عن أهم المؤلفات و أصحابها فى هذا العصر.

البيئة السياسية

إنقضى العصر العباسى الرابع و أصبحت البلاد الإسلامية عرضة للغزاة و الفاتحين، و المغول قد شنوا غارات متتالية على الفارس و العراق و الشام و قتلوا الناس نساء و رجالا و أطفالا و شيوخا و عمّت الفوضى و الدمار و الرعب أنحاء العالم الإسلامى و أُلقيت ثمرات الفكر و الثقافة و الحضارة و العلم فى الدجلة و هكذا كان عام ٦٥٦هـ إيذاناً بسقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية. و قد أعقب سقوطها ويلات عظيمة إجتاحت الأقطار الإسلامية لا من حيث السياسة فحسبُ بل من حيث المدنية و العلم و اللغة و الأدب.

أما مصر فقد ظلت فى حوزة المماليک من سنة ٣٤٨هـ إلى سنة ٩٢٣هـ و المماليک جماعة من الأرقّاء الذين اشتراهم الملک الصالح نجم الدين الأيوبى[١] ـ من أواخر سلاطين الدولة الأيوبية فى مصر ـ و نشّأهم تنشئة عسكرية و أسكنهم جزيرة الروضة فسُمّوا بالمماليک البحرية لإحاطة ماء النيل بهم و كان معظمهم من شبه جزيرة القرم و بلاد القوقاز و القفجاق و آسيا الصغرى و تركستان و بلاد ماوراء النهر و إنهم يعملون فى خدمة الجيش و ارتقى بعض منهم إلى مناصب الإمارة و الخطط العالية و قد اشتهر منهم فارس الدين أقطاي و عزالدين بن أيبک الجاشنكر، و ركن الدين بَيبَرس و سيف‌الدين قلاوون و لهولاء المماليک و أمراؤهم دور كبير فى رد المعتدين من مصر و قتال الصليبيين و دفعهم عن الديار المصرية.

و بعد وفاة نجم‌الدين الأيوبي خلفه نجله المعظم توران شاه و لكن نشب بينه و بين مماليک أبيه صراع شديد أسفر عن قتله و عن إقامة زوجة أبيه «شجرة الدر» مقامه.

و بعد مضي مدة قد تزوجت هذه المرأة الأميرَ عزالدين ابن ايبک الجاشنكير و هو أحد كبار المماليک و تنازلت شجرة الدر له عن السلطنة فاستأثر هو بها و أصبح ملكاً على البلاد و ذلک عام ٦٤٨هـ و هكذا زال حكم الأيوبيين و حل مماليكهم محلهم و في عام ٦٧٥هـ استقدم السلطان بيبرس - و هو من أشهر المماليک - أحمد بن الظاهر العباسي الذي كان والده آخر الخلفاء العباسيين إلى مصر و بايعه بالخلافة فى حفل عظيم و يوم مشهود و منذ ذلک اليوم ظل المماليک يحكمون مصر و الشام.

استمرت سلطنة المماليک على أساس الشورى و الإختيار لا التوارث و كلما مات سلطان إشتور كبار الأمراء و اختاروا من بينهم أميرا لولاية السلطنة و ظلوا على الحكم إلى أن استولى العثمانيون على مصر عام ٩٢٣هـ و قتلوا ملكها ثم قام السلطان العثماني سليم الأول بخلع المتوكل على الله الخليفة العباسي و أخذ منه رآية الجهاد و بردة الخليفة.

و حريّ بنا أن نذكر أن العصر المملوكى يشمل دولتين:

أولاً: دولة المماليک البحرية: تنتهي عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م و كانوا من الأتراک و هم مماليک الصالح نجم‌الدين الأيوبى الذى مرّ بنا ذكره و كانوا من الأرقّاء اشتراهم و جعلهم

---

١. و كان مصدر المماليک الشراء و الأسر ثم الاهتداء و الهبات و فى شكل ضريبة أو جزية يدفعها حكام الولايات و كانوا عبيداً أرقاء و لكن ليس كل العبيد مماليک و اختص ذلک اللقب بالرقيق الأبيض دون الأسود. أنظر: الأدب العربى في العصرين المملوكى و العثمانى، د. قصى حسين، ص١٣.

أمراء دولته و قوادها و أسكنهم جزيرة الروضة فسمّوا بالمماليک البحرية لإحاطة ماء النيل بهم و من أشهر ملوکهم الظاهر بَيبَرس و الأشرف الخليل و الناصر قلاوون.

ثانياً: دولة المماليک الشراکسه أو البرجية: تنتهي عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م و هم من أصل جرکس جلبهم أسيادهم المماليک البحرية و اتخذوا منهم حرساً و جنوداً و بما أنهم کانوا يسکنون فی أبراج قلعة القاهرة، فقد عرفوا باسم المماليک البرجية، و بدأت سلطنتهم بالسلطان برقوق و انتهت بقانصوه الغوري و طوماي باي.

البيئة الثقافية

قد نقل العباسيون عاصمة حکمهم إلى بغداد بعد أن کانت العاصمة الإسلامية فی عهد الأمويين فی دمشق و أصبحت بغداد فی زمن بني العباس مرکز العلوم و الآداب الإسلامية و ملتقى الثقافات و قبلة العلماء و الأدباء يتوجهون إليها من کافة أنحاء العالم الإسلامی و يختلفون إلى أوساطها العلمية و مجالسها الأدبية، و ظلت بغداد على حالتها العلمية الخصبة حتى ضعف بنوالعباس و انفصل عن سلطانهم کثير من العواصم الإسلامية فمن ثم أخذت تتعدد مراکز العلوم الإسلامية و منها مدينة القاهرة التي أنشأها الفاطميون و أصبحت فيما بعد مرکزاً هاماً من مراکز النشاطات العلمية و الأدبية و بقيت القاهرة على سابق إزدهارها فی عهد المماليک و بخاصة بعد سقوط بغداد و زوال الحکم العباسي و هکذا قد أصبحت القاهرة المرکز العلمي الوحيد و الموئل الآمن للعلماء و الأدباء و أصبح لها من الشأن ما کان لبغداد فی عهد العباسيين و شارکها فی ذلک عدة من العواصم المصرية کالإسکندرية و دمياط و أسيوط و قوص و الشامية کدمشق و حلب و حمص و حماة.

أهم أسباب النشاط العلمي في العصر المملوكي

قد إزدهرت الحرکة العلمية فی القاهرة فی العصر المملوکي و عمت سائر مدن مصر و الشام و نذکر فيما يأتي أهم الأسباب التی ساعدت على هذا الإزدهار:

١. إن زحف المغول الوحشي و ما تبعه من إحراق الکتب و إغراقها و قتل العلماء و تشريدهم قد دفع بالعلماء و الأدباء إلى البحث عن موئل آمن يُؤويهم و حماة جدد يدافعون عنهم فلم يجدوا آنذاک أقوى من مماليک مصر الذين دعوا أنفسهم حماة

المسلمين و الغيارى على دين الإسلام الحنيف فولّوا وجوههم شطرَ مصر و ساهموا فى إعادة النشاط العلمي إلى القاهرة بعد أن ركدت سوقه فى بغداد.

٢. قتل العلماء و الأدباء و إتلاف الكتب قد بعث الغيرة فى نفوس العلماء و الأدباء فحرصوا على إحياء التراث الإسلامي و تصنيف ما قد زال على أثر إحراق المصادر و إغراقها فى نهر الدجلة.

٣. حرص المماليک على التمسک بالغيرة الدينية، إذ إنهم فى جملتهم متعصبون لدينهم و مهتمون بمصالح المسلمين و لذلک ناضلوا الصليبيين و انتصروا عليهم مراراً كما ناضلوا المغول و ردّوهم عن ديارهم. و ربما هذه الغيرة هي التي قد حملتهم على الترحيب بالعلماء و تعظيمهم و الإعتماد عليهم فى شؤون الحكم حيث قد حاولوا على إختيار أصلحهم للقضاء و التعليم. فمن البديهي أن لهذا التعظيم دوراً فاعلاً فى دفع العلماء إلى النشاط العلمي تلبية لمتطلبات الحكام و إرضاء للطلاب و إحتفاظاً بمكانتهم السامية.

٤. إن المماليک قد أنشأوا المساجد و المدارس و أوقفوا الأوقاف العريضة عليها و من المحقق أن لهذه المساجد و المدارس دوراً اساسياً في إحياء الحركة العلمية و نشر العلوم و المعارف و الآداب و حفز العلماء، و من هذه المساجد و المدارس جامع عمرو و جامع ابن طولون و الجامع الأزهر و جامع الحاكم بأمر الله و عدة مدارس أخرى تم تأسيسها فى عهد الأيوبيين فى القاهرة كالمدرسة الصلاحية و المدرسة الناصرية و أضف إلى هذه ما أنشأه المماليک من المدارس و المساجد لتعليم القرآن و الدين و الحديث و ضروب العلوم الأخرى تقرباً إلى الله و رعاية للشعب أو مظهراً من مظاهر الفخر، و من هذه المدارس: المدرسة الظاهرية التى أسسها الملک الظاهر بيبرس بالقاهرة عام ٦٦٢هـ و المدرسة المنصورية التى أنشأها المنصور قلاوون و من أهم الدور التعليمية فى هذا العصر المارستان المنصورى و هو بناء ضخم فسيح بناه الملک النصور قلاوون عام ٦٨٢هـ.

٥. أسهم إنشاء المكتبات و تزويد المدارس و المساجد بهذه المكتبات فى إنعاش الحركة العلمية حيث قلما تجد داراً علمية خالية من هذه المكتبات و من أشهر خزائن الكتب خزانة جامع الحاكم بأمر الله زوّده بها السلطان بيبرس عام ٧٠٣هـ و خزانة جامع المؤيَّد

زوّده بها الملک المؤيد شيخ عام ٨١٩ هـ و خزانة القبة المنصورية أنشأها المنصور قلاوون.

٦. إهتمام المماليک باللغة العربية، و هذا يعود إلى أسباب مختلفة منها: إنهم نشأوا بين شعوب كانت تعتز بالعربية و تتعصب لها و لم يجدوا مفرّا من أن يظهروا بمظهر ديني يحبب الشعر فيهم[١] و السبب الأخر هو أنهم قد شعروا بعجز لغتهم التركية ـ إلى ذلک الحين ـ عن أداء حاجة الدولة و دواوينها المختلفة و شؤون القضاء و الفتوى و التعليم و ما إلى ذلک بينما كانت العربية طيعة ممرّنة على ذلک منذ أمد بعيد فمن ثم اتخذوا العربية لغة رسمية في دواوين الدولة و أبرز دواوينها حينذاک «ديوان الإنشاء» الذي أختص بالمكتبات الديوانية العليا و كان يعمل فيه أمهر أهل اللغة و الأدب و الكتابة، و هذا الأمر ساعد على رواج العربية الفصحى داخل الدواوين خاصة فى كتابة المراسلات و الوثائق العليا و قد تسبب في ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة و الأدب و الإنشاء.

البيئة الأدبية

سبق القول إن المغول بعد احتلال البلاد الإسلامية أخذوا يهدمون معالم الحضارة بإحراق المكاتب و إغراق الكتب و تشريد العلماء و تقتيلهم و لم ينجُ من شرهم إلا مصر و الشام اللتين دخلتا فى حوزة المماليک. و بسبب هذه الكوارث المؤلمة إتجه النشاط فى هذا العصر إلى إحياء العلوم أكثر من إتجاهه إلى إحياء الآداب و لعل هذا الأمر يعود إلى سببين، الأول: الحاجة التى يستشعر بها أهل العصر بعد تلف معظم المنتجات العلمية على يد المغول و الثاني: توفّر دواعي الإشتغال بالعلم على نحو ما مرّ بنا، و زد على هذا و ذاک جهل أكثر السلاطين بفنون الأدب و عدم تذوقهم للشعر و قلة تشجيع الأدباء عليه و كل هذه الأسباب قد ساعدت على أن تمتاز أوائل عصر المماليک بكثرة التصنيف و التأليف و جمع علوم الأوائل و التقليد لهم، فهذه الجهود الحثيثة التى بذلها علماء العصر المملوكي قد حفظت لنا خلاصة الكتب القديمة القيمة التى ذهب أكثرها إتلافاً و إحراقاً بعد العدوان

١. الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث، د. عبدالمنعم خفاجي، ص ٢٨.

المغولي الغاشم و الغارات المتتالية التى حلت بالأمة الإسلامية. و للتعرف على ميزات النثر و الشعر فى هذا العصر نعالج كل منهما على حدة.

أولاً: النثر

تناول الكتاب فى هذا العصر النثر العلمي و النثر الفني و نعني بالنثر العلمي كتابة المؤلفات غير الأدبية مثل ما كتبه اللغويون و المؤرخون و الرحالة و الفقهاء و غلب على أسلوبهم التحرر من الصنعة و الإهتمام بوضوح المعاني و سهولة الأداء إذ إن غايتهم العلمية تمنعهم من التنميق اللفظي و التلاعب بالألفاظ فجاء كلامهم لينا سهلا كما نشاهد عند إبن خلدون و عند إبن الطقطقي. أما النثر الفني فكان يشمل الرسائل الديوانية و الرسائل الأدبية و الخطابة و المقامات.

الرسائل الديوانية: نعني بها ما يتم تبادله بين السلاطين و الحكام من الرسائل و التى قد أُنشيء لها ديوان خاص عرف بـ «ديوان الإنشاء» و له رئيس يحظى بمكانة رفيعة «حتى صار فى بعض الأيام مدبر الدولة و مستشار السلطان الخاص و صاحب الرأى الأول فى السلطنة بعد السلطان و تقدم بذلک على مراتب العلماء و الوزراء و سمى كاتب السر»[١] و تنافس فى توليه كبار الكتاب. و أول من تلقب بكاتب السر القاضى فتح الدين بن محيي‌الدين بن عبد الظاهر لقبه بذالک الملک المنصور قلاوون.

الرسائل الأدبية: تشمل شتى الموضوعات منها الإخوانيات بأنواعها من مراسلات بين الأصدقاء و مناظرات أدبية فى مدح أو شكر أو تهنئة أو تعزية أو شكر أو عتاب أو شكوى أو مداعبة أو إستدعاء أو مجون أو اعتذار أو لغز أو سؤال علمي أو نحو ذلک مما يكون بين الخلّان، و من كتّاب الإخوانيات، الأديب الشاعر برهان‌الدين القيراطي و الشاعر البارز جمال‌الدين بن نباتة المصري و الأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدي.

المقامات: هى قصة قصيرة حوارية مسجوعة يكتبها أصحابها بأسلوب بديعي و قد نشأ هذا الفن فى العصر العباسي على يد بديع‌الزمان الهمذاني و أبي القاسم الحريري فعالجها كتاب العصر المملوكى و التزموا فيها السجع و الفنون البديعية إلا أن مقاماتهم أسهل عبارة و أخف تكلفاً من المقامات العباسية و أكثر تنوعاً من حيث الموضوعات و لم

١. الأدب العربى و تاريخه في عصر المماليک و العثمانيين و العصر الحديث، محمود رزق سليم، ص٢٨.

تنحصر فى الكدية و التسول بل تناولت الغزل و وصف الخمر و مجالس المنادمة و أبواب الفكاهة و المداعبة و المجون و تسجيل الحوادث العامة و وصف أخلاق الناس و عاداتهم و تصوير مناظر البيئة و أبواب الشكوى و المدح و أبواب النقد و اللغة إلى غير ذلک من الألوان[١]. و من أبرز أصحاب المقامات الشاب الظريف و زين الدين بن الوردي و صفي‌الدين الحلي و صلاح‌الدين الصفدي و شهاب‌الدين القلقشندي و جلال‌الدين السيوطي و ابن نباتة المصري.

الخطابة: تزدهر الخطابة إذا توفرت دواعيها و بواعثها و لكن فى هذا العصر قلّت دواعيها و تقلّصت بواعثها و ظلت مقتصرة على الخطب الدينية المنبرية التى تُلقى فى حفلات مبايعة الخلفاء و السلاطين و الخطب السياسية التى تُلقى عند اندلاع الحروب على نحو خطبة السلطان المملوكي قُطُز التى ألقاها بين أمراء الجيوش فى مصر حين خرج لحرب المغول فى عين جالوت و منها:

«يا أمراءَ المسلمين لكم زمانٌ تأكلون أموالَ بيت‌المال و أنتم للغُزاةِ كارهون و أنا متوجهٌ فمن اختار الجهادَ يصحبُنى و من لم يختر ذلک يرجع إلى بيته فإن الله مطلعٌ عليه».

و أهم ميزات النثر الفني فى العصر المملوكى هي ما يلى:

١. قد أغرق الكتّاب فى الصناعة و التكلف و آثروا الألفاظ على المعانى إذ مذهب هذا العصر أن العناية باللفظ يجب أن تكون عماد الكتابة و سرّ جمالها فجاء كثير من كتاباتهم أشبه بالألغاز و المعميات.
٢. أسرفوا فى أنواع البديع من طباق و جناس و تورية مستعصية و جمع و تفريق و لف و نشر و مراعاة النظير و غير ذلک من أنواع البديع و اختاروا عبارات طويلة الفقرات و سجعات مكرورة فجاءت عباراتهم ثقيلة باردة مهلهلة.

ثانياً: الشعر

أما الشعر في هذه الفترة فقد كان صدى لحالة الشعراء و الظروف السياسية و الإجتماعية السائدة على المجتمع المملوكي، و قلت فيها دواعى اللهو التى تنهض بالشعر فى جو

١. المرجع نفسه، ص ٣۶.

الفوضى السياسية و ضنک العيش فقد ذهب رونق الشعر و إنقرض أو كاد فى بعض البلاد الإسلامية و ناله الضعف فى بعضها الآخر و لم يبق شيء من مجده إلا فى الشام و مصر و الأندلس و المغرب و ذلک بسبب وجود بعض الذين مازالوا يقدّرون الشعر و يهشون لسماعه. و أخيراً نلخص ميزات الشعر و الشعراء فى هذا العصر على النحو التالى:

١. بعد سقوط بغداد صار أكثر رؤساء البلاد و ملوكها أعاجم لا يمتّون إلى العربية بصلة و لا يُعنون بتشجيع الشعراء إلاّ فى النادر فانصرف معظم الشعراء إلى التأليف و التصنيف و التبويب فمن ثم نرى شعراء هذا العصر يجمعون بين الإنشاء و الشعر و الكتابة فبدأ ضعف البناء و الصياغة فى أشعارهم على الأكثر و اهتموا بالشكل دون المضمون.

٢. أُضطر جلّ الشعراء إلى كسب معيشتهم عن سبل الحِرف و الصناعات الأخرى سدّا للحاجة و حفظاً للرمق حتى وجدنا بينهم من اصطنع الكتابة و اشتغل فى دواوين الإنشاء كابن حجة و القلقشندي و من احترف الجزارة كأبي الحسين الجزار الذي قال مفتخراً بمهنته:

لا تعِبني بِصَنعَةِ القصّابِ فَهي أَذكى مِن عَنبَرِ الآدابِ
كانَ فَضلي عَلَى الكِلابِ فَمُذ صِر تُ أديباً رجوتُ فضلَ الكلابِ

٣. إنتشرت فى الشعر الألفاظ العامية و الكلمات الأعجمية و الأوزان الشعبية مثل المواليا و القوما و الزجل و الدوبيت و الموشح و ذلک لأن هذا النوع من الشعر أقرب إلى أفهام الشعب و المماليک و أدنى إلى أذواقهم من الشعر الفصيح فراجت سوقه و أجاز عليه السلاطين.

٤. تسابق الشعراء مع الكتاب فى الإكثار من المحسنات فى شعرهم لإظهار براعتهم فى إستخدام أنواع البديع كالجناس و الطباق و التورية و إنشاء القصائد المعجمة و المهملة و إستعمال الألفاظ المصغرة و التزام ما لا يلتزم و الألغاز و الأحاجي و التاريخ الشعري و الطرد و العكس و ما إلى ذلک من الألاعيب اللفظية[١].

---

١. للتوسع فى الموضوع راجع: مطالعات فى الشعر المملوكي و العثماني، د. بكري شيخ أمين، ص١٦٥ و ما بعدها.

٥. كثر ميل الشعراء إلى المقطوعات القصيرة التى تحوي تورية أو لغزا أو فكاهة و إلى وصف الأشياء البسيطة كالبساط و المخدة و المروحة و الجدران الخربة و الدواة و غالبا ما يرمون بهذه الأوصاف إلى تورية أو لغز كقول شهاب‌الدين الحلبي فى سُبحة:

وَ سُبحَة مُسوَدَّة لَونُها يَحكي سَوادَ القلبِ وَ النّاظِرِ
كَأَنَّني عند اَشتغالِي بِها أعُدُّ أيامَک يا هاجِرِي

و كقول جمال‌الدين بن نُباتة ملغزا فى قلم:

مَولايَ ما اسمٌ لناحلٍ دَنِفٍ ليسَ بـه عِلَّةٌ وَ لا سَقَمُ
لِسانُ قَومٍ فَإن حَذَفتَ و إن صَحَّفتَ بعضَ الحروفِ فَهوَ فَمُ

٦. إن العلاقات الودية الوشيجة بين شعراء هذا العصر فتحت أمامهم أبوابا مختلفة و هيأت لهم أغراضا متعددة منها: التهنئة و التعزئة أو التشوق و الحنين أو تبادل المدح و العتاب أو الإستدعاء و الإستهداء أو الشكر و الشكوى، هذا إلى المطارحات و المناقضات الشعرية و المفاكهات أو الملاغزة و المحاجاة و من ذلک ما كان من المطارحات الشعرية بين أبى الحسين الجزار و السراج الوراق و بين صفي‌الدين الحلي و جمال‌الدين بن نباتة[١].

٧. قد كثر التنافس الأدبي بين شعراء عصر المماليک حتى دفعهم ذلک إلى المطارحات و المعارضات الشعرية و نظم اللغز أو جوابه أو إلى الملاحاة و المهاجاة و اشتد هذا التنافس بين شعراء مصر و الشام حيث يقول عنه الدكتور عبدالمنعم خفاجي: «كان هذا التنافس من أسباب تجويد الشعر و نهضته، فلم يكن شاعر كبير فى مصر ينظم قصيدة فى غرض من الأغراض إلا و يبادر شعراء الشام فيتناولونها بالمعارضة أو الإحتذاء أو التهكم و مثل ذلک كان يفعل شعراء مصر حين يسمعون بقصيدة شامية[٢]».

و قد يؤدى هذا التنافس إلى التلصص إذ إن الشاعر متى أعجبه معنى سرقه و تلطف فى إستعماله بتغيير وزنه و تقديم و تأخير فى ترتيبه أو حذف منه أو زيادة عليه و هذه

١. أنظر: الأدب العربى و تاريخه فى عصر المماليک و العثمانيين، رزق سليم، ص٦٣.
٢. الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث، ص٩٥.

الظاهرة لا تدل إلا على جدب خيال شعراء هذا العصر و حب التقليد و انتحال معاني الشعر، من نماذج هذه السرقات قول علاءالدين الوادعي:

وَ النَّهرُ كَالمِبردِ يُجلي الصَدا بِبَردِه عَن قَلبِ ظمآنِه

أخذه إبن نباتة فقال:

و النَهرُ فيه كَمِبردٍ فَلِأجلِ ذا يَجلُو الصَدا

رُوى أن إبن نباتة إذا ما أبدع معنى أخذه صلاح الدين الصفدي بلفظه أو بتغيير قليل فيه فألّف إبن نباتة كتاباً سماه «خبز الشعير» و أشار فيه إلى ما قاله و سرقه منه الصفدي[١]. فمن ذلک قول إبن نباتة:

يا مُشتَكى الهَمِّ دَعهُ و انتَظِر فَرَجا و دارِ وَقتَکَ مِن حينٍ إلى حينِ
فَلا تُعانِد إذا أصبَحتَ فى كَدَرٍ فإنَّما أنتَ مِن ماءٍ وَ مِن طين

فَأَخَذَه صَلاحُالدينِ الصفدي و قال:

دَعِ الإخوانَ إن لَم تَلقَ مِنهُم صَفاءً و استَعِن وَ استَغن بِالله
أ لَيسَ المَرءُ مِن ماءٍ وَ طينِ وَ أَيُّ صَفا لهاتيک الجِبِلّه؟

٨. شاع فى هذا العصر المديح النبوي شيوعاً واسعاً و أول من تنبه له البوصيري (المتوفى سنة ٦٥٩ هـ) الذي برع فى هذا الفن حتى سُمي بمخترع المدائح النبوية ثم أخذ سائر الشعراء يقلدونه و يعارضون قصيدة البوصيرى المسماة بالبردة التى مطلعها:

أَ مِن تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذى سَلَمِ مَزَجتَ دَمعاً جَرَى مِن مُقلَةٍ بِدَمِ

١. للتعرف على المزيد من هذه السرقات راجع: الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث ص ٨٤ و ما بعدها.

و أول من عارضها هو صفي‌الدين الحلي (المتوفى سنة ٧٥٠هـ) و يليه جمال‌الدين بن نباتة و عزالدين الموصلي و الشاب الظريف و جلال‌الدين السيوطي و إبن حجر العسقلاني و تقي‌الدين إبن حجة الحموي، و هؤلاء الشعراء ضمّنوا مداحهم النبوية ألواناً من البديع و سموها البديعيات.

رواج هذا النوع من الشعر الديني يعود إلى أسباب منها ـ كما يقول محمود رزق سليم ـ أن العصر كان عصر تعصب إسلامي و غيرة دينية واسعة بسبب حروب الصليبيين و التتار و طمعهم فى أملاک المسلمين و القضاء عليهم و على دينهم و منها أن العصر كان عصر ظلم و إرهاق و إستبداد من الحكام فلاذ الشعب ببث آلامه و بالتوسلات إلى الله سبحانه أن يكشف عنه الغمة و أشرف ألوان التوسلات ذكر النبي الكريم و التشفع به إلى اللّه[١].

أهم المؤلفات فى العصر المملوكي

من الإتهامات التى وجهها بعض الدارسين إلى الأدب العربي فى العصرين المملوكي و العثماني هى محاولة تسميتها بعصر «الإنحدار» أو عصر «الإنحطاط» أو «عصر الأعاجم» أو عصر «المغول و التتار» أو عصر «الأتراک» و هم لا يريدون من هذه التسميات إلا وصم هذا العصر بالضعف و التهافت و التقهقر و من النقاد من راعى جانب الإنصاف و الحيطة و حاول تبرئة العصر من هذه التُهم، و منهم الباحثة فائزة سليمان التى تقول فى معرض الدفاع عن هذا العصر: «إن هذه التسميات إنما أطلقها المستشرقون و من تابعهم من دعاة التغريب رغبة فى تدمير مقومات الأدب العربي و وصمه بالضعف و التخلف حين يشاؤون ذلک فيما يُعلون شأن عصور أو شخصيات أخرى حين يريدون ذلک أيضاً لأغراض محددة بطبيعة الحال[٢]». و هكذا ترفع هذه الباحثة شأن هذا العصر و تفضله على ما يعرف فى الأدب العربي بعصر النهضة و تقول: «قد فاق إنتاج هذا العصر من الناحية الكمية وحدها ما أفرزته العصورُ اللاحقة كلها بما فيه ما يسمى بعصر النهضة الذي امتد أزمنة طويلة دون أن نلحظ أي نهوض حقيقي في العالم العربي كله إلى يوم الناس هذا[٣]».

---

١. الأدب العربى و تاريخه فى عصر المماليک و العثمانيين و العصر الحديث، ص ٦٩.
٢. دفاعاً عن عصر الإنحطااط، ص ١.
٣. المرجع نفسه، ص ٣.

هذا و الحقيقة التى ينبغي لكل باحث منصف و قاض نزيه أن يعترف بها هي أن الإنتاج الزاخر المتنوع الذي تركه لنا أبناء هذا العصر حفظ التراث العلمي و الأدبي العربي و الإسلامي و لو كان هذا وحده من مفاخر هذا العصر لكان كافياً فى حد ذاته، و إنما كانت هذه الحقبة عصر الإبقاء على حياة اللغة العربية و «الفضل إنما كان للذكر الحكيم و الأزهر الشريف ولسلاطين مصر و الشام من الأيوبيين و المماليک الذين إتخذوا مصر موطناً و الإسلام دينا و العربية لغة و عضدوا العلماء و قربوا الأدباء و شدّوا أزر المعلمين و المؤلفين حتى نبغ فى ظلهم أولئک الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة و العلوم فى المجموعات و الموسوعات و أقبلوا على علوم الأولين بالشرح و التلخيص و هذبوا التاريخ و وضعوا فلسفته و أقاموا للشعر وزنا على قلة العارفين بفضله و المستمعين إلى أهله»[1]. فمن الحق أن يقال إن وصم هذا العصر بالإنحطاط ظلم و إن هذه المرحلة إذا أمكن أن توصف بالتخلف سياسياً و إجتماعياً فإنها فى مجال الأدب و الدراسات العقلية و الإنتاج الفكرى كانت خصبة حافلة[2].

و فى هذا العصر قد حرص العلماء على جمع أشتات العلوم العربية و الإسلامية التى ضاعت فى نكبة بغداد على أيدي التتار و التي تركت أثراً كبيراً فى نفوس المفكرين المسلمين و هم قد أحسوا أن خطرا حقيقيا بدأ يهدد الفكر الإسلامي و الأدب العربي جميعاً، فتوافرت دواعيهم و اشتدت بواعثهم، و قد علل الدكتور جودت الركابي فى سياق دراسة أدب هذا العصر دوافع أبناء هذا العصر إلى النشاط العلمي قائلاً: «إن أسباباً تضافرت على هذا العمل الجليل منها غيرة العلماء على العلم و الدين و رغبتهم فى إعادة مجد الإسلام و خدمة لغة القرآن و كذلک كان ملوک هذه الأيام يحتاجون إلى المآثر يخلدونها و يُذكَرون بها، إذ لا أمجاد متوارثة يفخرون بها إلا ما يقومون به من أعمال كما أنهم قاموا يبنون المدارس و الجوامع و يساعدون على نشر العلم إعتقادا منهم بأن ذلک يغفر لهم ذنوبهم، لذلک نشط التأليف و كثرت المؤلفات الجامعة و لاسيما بعد إقفار البلاد من الكتب إثر نكبات المغول و تدمير المدن و المكاتب فحفزهم هذا إلى إحياء الدارس و

---

۱. تاريخ الأدب العربى، احمد حسن الزيات، ص ۲۹۵-۲۹۶.

۲. خصائص الأدب العربى، انور الجندى، ص ۱۸۹.